استلهام التاريخ في المسرح العربي

منذ بداية عصر النهضة حى اليوم ، سعى العرب إلى تطوير مجتمعاتهم وتخليصها من الفساد والتخلف وإلى التخلص من الهيمنة الأجنبية استعماراً كانت أم ارتباطاً اقتصادياً بأسواقها. وقد حمل المسرح هذه الغايات منذ نشأته حتى اليوم . ولهذا لم تتم في المسرحيات العربية معالجة العواطف الضخمة والمواقف الإنسانية من الكون ومشكلات الوجود والقلق من الوجود إلا على نطاق ضيق . وانبرى المسرح العربي إلى معالجة موضوعات التهذيب الأخلاقي والعزة القومية ومقارعة المستعمر وبناء المجتمع الحر الكريم. ومن هنا يمكن القول- بكثير من الاطمئنان مرة ثالثة - إن المسرح العربي ولد وفي فمه ملعقة السياسة .

وقد كانت المسرحية التاريخية مرجعا قويا لإبراز الغايات الفكرية التي هدف إليها الكتاب المسرحيون منذ نشأة المسرح العربي حتى اليوم . فكانت المادة التاريخية وسيلة لشرح الأفكار المعاصرة لكل جيل من أجيال الكتاب ولكل مرحلة من مراحل التاريخ المعاصر. وقد اندفع الكتاب المسرحيون إلى استلهام المادة التاريخية لأنها أكثر إقناعاً للمتفرج من المادة الواقعية. فهي أحداث يعرفها ويعترف بها كلٌّ من الكاتب والمتفرج.

خصائص المادة التاريخية في المسرح العربي:

لم تكن النصوص والأفكار في المسرح العربي حين نشأته وليدة فكر وإنتاج الفنان العربي ،إلا أنه تفطن بعد تجاربه المتتالية أنه لابد وأن يطعم هذا الفن المستحدث في البيئة العربية بما يجسد تطلعاته وآماله وأحلامه وأن يكون لصيقا به ،قريبا من معاناته ،حاضرا في يومه ،فاعلا في صنع غده.

فكان التاريخ الأقرب إلى تحقيق هذه الغاية على خشبة المسرح وكان لاستخدام التاريخ عند المؤلفين العرب خصائص ومظاهر وكذا اتجاهات ،ويمكن تلخيص هذه الخصائص أو المظاهر بالآتي:

1- إن التاريخ العربي متصل الحلقات مكتوبٌ كلُّه باللغة العربية التي لم تندثر ولم تتغير قواعدها . وهو في الوقت نفسه تاريخ الإسلام الذي تدين به الأكثرية الساحقة للعرب . ولذلك اعتبره العرب جميعاً تاريخهم . ويُبنى على ذلك أن كل ما وقع من أحداث تاريخية منذ الفترة التي سبقت الإسلام بمائة وخمسين عاماً حتى اليوم ، هو التاريخ المقروء المتداول لجميع الأقطار العربية. وكل حادثة وقعت في أية منطقة في أي عصر تخص كلَّ واحد من أبناء العربية وتمسه مساً مباشراً حياً. إن ما سبق يعني أن الكاتب المسرحي العربي وجد أمامه

فسحة زمانية ومكانية في انتقاء ما يشاء من أحداث تاريخية. وأيُّ حدث تاريخي يدور موضوع مسرحيته حوله سوف يتلقاه المتفرج العربي باعتباره جزءاً من تاريخه. وسوف يكون له التأثير البليغ في نفسه. وليس مثال (مصرع كليوباترة) لأحمد شوقي بعيداً عن الأذهان . فما من بلد عربي إلا قدم المسرحية مرات ومرات .

2- إذا كانت المسرحية الواقعية تمس ما هو خاص بكل قطر عربي، فقد التفتت المسرحية التاريخية إلى ما هو عام في الوطن العربي. كانت الأقطار العربية تحت السيطرة العثمانية . فلما انزاحت هذه السيطرة جاء الاستعمار الغربي . ثم بدأ الاستقلال عنه منذ منتصف القرن العشرين . ومع أن كل قطر عربي كان له واقعه الخاص به ومشاكله النابعة من هذا الواقع ، فإن الطموح نحو الاستقلال كان واحداً. وكانت هذه الفترة هي ما اصطلح على تسميته (عصر النهضة العربية) ومن هنا ندرك لماذا أمكن تقديم المسرحيات التاريخية في العديد من الأقطار العربية في حين لم تستطع المسرحيات الواقعية أن تتجاوز أقطارها إلى غيرها إلا بصعوبة.

3-خاض المسرحيون معركة مزدوجة منذ نشأة المسرح العربي. فهم يسعون إلى تثبيت وجود المسرح لتحويله من فن طارئ متهم إلى فن مقيم له أصالته في الحياة الثقافية والاجتماعية العربية . ويسعون في الوقت نفسه إلى تطوير أدواتهم الفنية. وقد كانت هذه المعركة من أعنف معارك عصر النهضة . وقد تصدى لها المسرحيون والمفكرون معاً. وما حدث مع مارون النقاش وأبو خليل القباني خير دليل على ذلك.و في هذه المعركة كانت المسرحية التاريخية السلاحَ الأقوى. فهي تتقدم إلى الناس بما يعرفونه من الأحداث التاريخية وبما يعتبرونه النماذج العليا من العزة والشموخ ، وبما يفتخرون به من الشخصيات التاريخية القومية.

4- أدرك المسرحيون العرب ، وهم يتناولون التاريخ ، أنهم ليسوا مؤرخين وإن اعتمدوا الحدث التاريخي مادة لمسرحياتهم . فكانوا يغيرون في سير الأحداث ونهج الشخصيات . يدفعهم إلى ذلك أمران : أولهما أن بناء القصة التاريخية يختلف عن بناء كتابة التاريخ . فالأول قوامه الخيال والثاني قوامه الحقائق . وإذا كان المؤرخ ملزماً بالحقائق فإن الأديب ملزم بالمحاكاة. والمحاكاة لا تطابق الواقع بل تطابق صورة الواقع التي يبنيها التخيل والتخييل. وثانيهما أن المسرحية التاريخية لم تكن غايتها الوقوف عند الماضي بل التغلغل في أسرار الحاضر.

5- منذ نشأة المسرح العربي حتى اليوم يعاني الكتاب المسرحيون من مشكلة العامية والفصحى لغةً للمسرح.و المسرحية التاريخية وحدها هي التي تخلصت من هذه المشكلة عكس المسرحيات الواقعية.فاللغة الفصحى هي التي تليق بالمسرحية التاريخية.

المحاضرة الثانية عشر

اتجاهات المادة التاريخية في المسرح العربي:

قد يصعب حصر الغايات والأهداف التي قصد إليها كتاب المسرحية طوال القرن ونصف القرن التي هي عمر المسرح العربي. لكن يمكن أن نحدد الاتجاهات الأساسية لهذه الغايات في محاور ثلاثة.

1-التنوير الفكري والسياسي من أجل مناهضة الاستعمار: سارت المسرحية التاريخية في هذا المحور منذ ظهورها بعد مرحلة الرواد الأوائل حتى منتصف القرن العشرين . وكانت تقصد إلى إذكاء الروح القومية في وجه الأتراك ثم في وجه الاستعمار الغربي . فكانت تعرض الأمجاد العربية لإثبات قدرة الإنسان العربي على المقارعة لإبراز خصائصه القومية والإنسانية، وإذا كانت المسرحيات تضيف إلى الحقائق أوشحةَ الخيال بما يقتضيه الفن ، فإن مسرحية واحدة لم تخرج عن السياق التاريخي . وكل ما كانت تفعله أنها تؤكد الحقيقة التاريخية بلهيب العواطف وحسم المواقفولعل فتح بلاد الشام والحروب الصليبية كانت المادة التاريخية الأكثر تداولاً بين كتاب المسرح في مصر وسورية. وكان خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي أبرز الشخصيات التي دارت حولها المسرحيات التاريخية في هذين البلدين، وكانت سلطات الاحتلال تتصدى لهذه المسرحيات بالمراقبة والإجبار على الحذف والتغيير حيناً ، وبمنع العروض حيناً، و باقتحام مكان العرض حيناً ثالثاً.

2/ **الدفاع عن الثورات العربية والمجتمع الجديد** : منذ منتصف القرن العشرين بدأت الدول العربية تنال استقلالها عن الاستعمار الغربي سواء كان هذا الاستقلال ذاتياً مع وجود قوات الاحتلال أم كان كاملاً بجلاء هذه القوات . وفي هذه الفترة تراجعت كتابة المسرحية التاريخية وبرزت المسرحية الواقعية . لكن الثورات العربية على الأنظمة التي تلت مرحلة الاستقلال سرعان ما تتالت في عدد من الأقطار العربية. وشاعت الأفكار الثورية على الفساد و الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي في الدول الأخرى. وهنا حدث تحول كبير في المسرحية التاريخية. فقد عادت إلى البروز من جديد. و أخذت تتناول أحداثاً تاريخية جديدة تغاير ما اعتاد كتاب المسرحية التاريخية تناوله في المرحلة الأولى. فبدلاً من انتقاء فترات التصدي للدخلاء الأجانب تم انتقاء فترات التصدي للسلطات الحاكمة. و بعد أن كان الصراع التاريخي يجري بين قوة خارجية متعدية وبين العرب، صار الصراع يجري بين السلطة العربية وبين الناس العرب. وبدلاً من انتقاء الفترات التاريخية الزاهية بالانتصارات، تم انتقاء الفترات المظلمة أو الحافلة بالظلم و الطغيان. ففتح الأندلس في المرحلة الأولى يقابله (غروب الأندلس) في المرحلة الثانية. و(أبطال المنصورة) حل محلهم شهداء كربلاء. وفتوح

بلاد الشام يقابله سقوط بغداد واجتياح بلاد الشام. وفي كل ذلك لم يتم الغروب والسقوط والاجتياح إلا بعوامل الفساد الداخلي الذي أوصل البلاد إلى الضعف ثم الانهيار . وهكذا صارت (شحناء المسرح) ذات وجه داخلي . . فبرزت شخصيات من أمثال أبي ذر الغفاري والحسين بن علي وصاحب الزنج وأبي خليل القباني ورفاعة الطهطاوي والحلاج. وهؤلاء جميعاً ، وغيرهم، تم قهرهم على يد أبناء جلدتهم لما حملوه من أفكار مغايرة لما كان سائداً في عصرهم .

3/ **إعادة النظر في التاريخ** : إن إعادة النظر في التراث القديم كان لابد أن يظهر له معادل فني تجلى في كثير من الآثار الأدبية شعراً ورواية ومسرحاً. و ليست (أولاد حارتنا) لنجيب محفوظ إلا دليلاً من أدلة المعادل الفني لهذا الاتجاه. وقد غمست المسرحية التاريخية قلمها أيضاً في هذا الاتجاه. فكان أن صدر من وحيه عدة مسرحيات تزلزل - رغم قلتها - ما اعتاد الناس التسليمَ به من صحة الوقائع التاريخي.

لقد انعقدت البطولة في الحروب الصليبية لصلاح الدين الأيوبي . وغبرت المسرحية التاريخية طوال أكثر من مئة سنة تؤكد هذه البطولة . وإذا كانت بطولة القائد الفذ مذكيةً لوقود الحماسة في نفوس الناس لطرد المحتل في المرحلة الأولى قبل استقلالات الدول العربية ، ودافعةً إلى التحريض على محاربة العدو الصهيوني بعد هذه الاستقلالات في المرحلة الثانية ، فقد تحولت إلى تكريس الزعامات العربية المهزومة أمام العدو والدفاع عنها في المرحلة الثالثة . ولذلك ألغى محمود دياب في مسرحيته (باب الفتوح) هذه البطولة ونحا نحواً مغايراً حين رد البطولة إلى الشعب. ولم يكتف بهذا بل جعل المسرحية (محاكمة للتاريخ الرسمي ومؤرخيه المأجورين). وبعد أن كان قائد فتنة الزنج (خبيثاً وخائناً) كما تواتر وصفه في كتب التاريخ، صار بطلاً يقود ثورة الفقراء ضد الظالمين في مسرحية معين بسيسو (ثورة الزنج). وبعد أن كان الجيل الذي تلا صحابة رسول الله (ص) مقدسين يُدعى لهم على المنابر، صار قسم منهم جشعين محرفين للإسلام في (ليل العبيد) لممدوح عدوان . وصار صقر قريش مهرجاً في مسرحية (المهرج) لمحمد الماغوط. فكأن المسرحية التاريخية في هذه المرحلة تدعو إلى الانقضاض على الأنظمة العربية التي حملتها الأفكار الثورية إلى سدة الحكم .

ولعل مسرحيات عز الدين المدني (ديوان الزنج - ثورة صاحب الحمار - الغفران - مولاي السلطان الحسن الحفصي) تشكل حالة مدهشة من إعادة النظر إلى التاريخ . فهي ترفضه وتسخر منه وتعيد صياغته مستخدمة في الوقت نفسه أفكار العصر الحاضر وشعاراته .